مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN : ISSN2543-3857
المجلد 05 / العـدد: 01 (2021)
ص 63-76

دور روح العصر في إنتاج الألفاظ والمعاني

قراءة في تأصيل ابن رشيق المسيلي لعملية الإبداع الأدبي

The role of the period in the production of expressions and meanings
A reading in the rooting of Ibn Rashiq Al-Messili for the literary creation process

الباحث(ة)	مؤسسة الانتماء	البريد الالكتروني
د/ رزيق محمد Rezig Mohammed	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	Rsedik@ymail.com

الملخص: لعلني لا أكون مبالغا اذا قلت بأن رأي ابن رشيق من أكثر الأراء النقدية اتزانا و هدوءا ، و من أكثرها تحليلا و تعليلا ، فلا هو بالغ في توجيه التهم الى الشعراء الذين استعانوا بغيرهم ، لانه يعلم علم القين أن الشاعر يحذو حذو سابقيه ،و يأخذ عنهم ، و لا هو تساهل مع المتكئين الذي يسطون على شعر غيرهم لأن دلك بلادة و عجز و قلة همة ، لذلك يقرر " و هذا باب متسع جدا (يعني باب السرقات) لا يقدر أحد من الشعراء ان يدعي السلامة منه ، و فيه اشياء غامضة ، الا عن البصير الحاذق بالصناعة ، و اخرى فاضحة لا يخفى على الجاهل المغفل " .

كلمات مفتاحية: العملية النقدية ، الابداع ، الاتباع ، البلاغة التعبير ، الفنية ، التقليد ، التفرد.

Summary

Perhaps I would not be exaggerating if I said that Ibn Rasheeq's opinion is one of the most balanced and calm opinions, and one of the most analyzed and justified. He is not exaggerating in pointing accusations against poets who sought help from others, because he knows the certainty that the poet is following the example of his predecessors, and takes away from them And, nor is it leniency with reclining people who lash over the hair of others because it caused dullness, helplessness and lack of energy, so he decides, "This is a very wide chapter (meaning the door of thefts) that none of the poets can claim safety from it, and there are some mysterious things, except On the subtle insight of the industry, and other scandalous things that are not hidden from the ignorant ignorant" .

Key words: Critical Process, Creativity, Followers, Rhetoric, Expression, Artistic, Tradition, Singularity.

1 مقدمة: تعد البلاغة من العلوم العربية التي أولى لها العرب اهتماما واسعا قديما وحديثا، باعتبارها ركيزة أساسية في صناعة الأدب وفنون القول، بالاضافة إلى أنها تسهم في تكوين الذوق الأدبي وتنميه، وهذا ما يغرس في الفرد العربي مهارة الابداع وتعلمه براعة القول والافصاح، وقد مر هذا العلم بمراحل متعددة من الدارسين الذين أسهموا في تأسيسه وتطويره والاهتمام بمصطلحاته منذ بزوغه إلى استواءه، وقد كان لعلماء المشرق العربي يد بيضاء في هذا الميدان بحيث نبغ فيه علماء أجلاء واشتهروا بمؤلفاتهم وكان لها صيت عربي واسع، وهذا لا يمنع أن يكون في المغرب العربي علماء تميزوا في هذا الميدان وكتبوا في البلاغة العربية، بل وجدت الكثير من المؤلفات التي تحاكي وجود هذا الفن الابداعي، غير أن الممعن النظر فيها يجدها أنها قد احتذت بمجهودات علماء المشرق وتأثروا كثيرا بأعمالهم البلاغية حتى أنهم أخذوا الكثير من المصطلحات والشواهد الشعرية،

و لما كان بن رشيق من النقاد الذين تميزوا بسعة المعرفة و الاطلاع ، و حرصه على عرض القضايا النقدية مشفعة بالحجة و الدليل ، فانه لا يتردد في تاكيد و تثبيت و تاييد آرائه و مواقفه بآراء غيره من النقاد الذين يعتبرهم اصح مذهبا ، و اكثر تحقيقا ، كشيخه عبد الكريم النهشلي ، و صاحب الوساطة عبد العزيز الجرجاني ، أو من النقاد الذين حادو عن الطرح الموضوعي بسبب التعصب كابن وكيع التنيسي ، و استشهاد ابن رشيق باراء هؤلاء النقاد – على اختلاف وجهات نظرهم ، و التزامهم بالموضوعية أو الانحراف عنها – يؤكد انه حريص على ابراز منهجه في النقد الذي يقوم على الموازنة العلمية المستندة الى العلم بصناعة الشعر و قواعده

و لما كان موضوع السرقة من القضايا النقدية الشائكة ، فانه يتعرض له من زوايا مختلفة باسهاب ، فيتناول مجموعة من المصطلحات ، بعضها متقارب و بعضها الاخر متباعد في الدلالة و تتلخص وجهة نظره في هذا الموضوع في المصطلحات النقدية التالية: اللفظ و المعنى ، سرقة في المعنى مع تغيير في اللفظ ، سرقة تعتمد على تغيير المعنى أو بعض المعنى .

و يبدو على بعض آراء ابن رشيق تناقضا ، ففي في الوقت الذي يمدح امرئ القيس ويعتبره مقدم لا محاله ، و يشيد بشعراء الجاهلية و الاسلام ، و يضفي عليهم هاله من التمجيد و الاكبار نجده معجبا ايما اعجاب بالمحدثين و ينتصر لهم ، من امثال ابي تمام والرومي ... ، و من مظاهر اعجاب ابن رشيق بابن الرومي افتتانه بتوليد المعاني و هي ظاهرة تميز بها شعر هذا الاخير.

يكون الشعر من منظور ابن رشيق ابعد من الشركة كلما كان خاصا ، و كلما كان نظما دخل في الاشتراك ، كما ان الألفاظ و المعاني تنتجها روح العصر .

و اذا كان لكل قوم ألفاظ ، و لكل صناعة ألفاظ فإنه من البديهي ان لا تفهم آثار أولئك القوم ، او تلك الصناعة إلا من خلال تلك الألفاظ ، و من هنا وجب تحديد و تعيين المصطلحات النقدية التي تتصل بالسرقة الأدبية كما وردت في كتابي العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، و قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، لأن هذه المصطلحات تمثل المنطلق لاستجلاء مجهودات ابن رشيق النقدية ، و لأنها هذه المصطلحات من الكثرة بمكان فقد اقتصر البحث على أكثرها دوران على لسان ابن رشيق ، و تواترا في مؤلفيه .

لقد كان ابن رشيق المسيلي ناقدا عالما بالشعر و أدواته ، حاول تقديم تعريف علمي لمشكل السرقة، و مواطن الأخذ، و تحديد المستحب الممدوح ، و المستهجن القبيح ، كان يرصد كل ذلك وفق نظرة نقدية موضوعية تعتمد على أصالة الشاعر و مقدرته و براعته في صناعة الشعر ، لأن " الشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة " .

و لئن كان ابن رشيق قد اعترف صراحة على سعة باب السرقات ، فانه وظف لذلك مجموعة من المصطلحات ورد بعضها في كتابه العمدة ، و اخرى ذكرها في كتاب القراضة.

و قبل ذكر هذه المصطلحات، و ابراز خصائصها النقدية، تجب الاشارة الى ملاحظة تبدو أساسية في اجتهادات ابن رشيق في هذا الباب ، ذلك أن الدارس لهذه المصطلحات يقف على الملاحظة التالية :

بعض هذه المصطلحات يتصل بالمعاني ، و بعضها الاخر يتصل بالبديع (الألفاظ) فالمصطلحات المتصلة بالمعاني اغلبها متصل بالبيان كعلم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، مع الدلالة عليه ضمن مجموعة من الأصول ، حتى يجمع الكلام بين الجودة و الجزالة ، فعلم البيان بهذا المعنى في نظر ابن رشيق هو " العلم الذي يبحث في تادية المعنى المراد باساليب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد " .

ذلك أن " المعاني الظاهرة المعتادة فانها معرضة للافهام ، متسلطة على فكر الأنام " ، ومع ان ابن رشيق يصرح بصعوبة السلامة من السرقة الأدبية ، و يؤكد وجود اشياء غامضة " إلا عن البصير الحاذق بالصناعة " فانه يحاول بما عرف عنه من قدرة و ابداع حصر طائفة من هذه المصطلحات منها: وكان هدفه من وضع هذه المصطلحات البلاغية لم يكن البحث في البلاغة لذاته على نحو مانجده عند الكثير من العلماء أمثال: الحطيب القزويني، وإنما كان هدفه هو بيان مالهذه الوسائل التعبيرية والفنية من أثر في الشعر.

1. مصدر المصطلحات البلاغية:

تنوعت مصادر المصطلحات البلاغية التي ذكر ابن رشيق في كتابه العمدة، منها ماكانت ذات أصل مشرقي، وأخرى من أصل مغربي من ابداعه أو وضعها علماء المغرب من أساتذته وزملائه من عاصره، ونفصل الحديث في ما يلي:

- **المصطلحات المشرقية:** إن المتأمل والمتفحص لكتاب العمدة يجد أن ابن رشيق قد اتكأ كثيرا على المصطلحات البلاغية التي ذكرها العلماء في المشرق العربي وأطلقوها على الفنون البلاغية المعروفة في ذلك الوقت، فنجده يوظفها مثلهم، وهي: البلاغة والبيان والبديع والتشبيه والحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والايجاز والمساواة والمطابقة والمقابلة والتصدير والتتبيع والتتميم والترديد...

وهذا لا يعني أنه كان ينقل حرفيا كل ما كتب في المشرق عن المصطلح، بل يأخذ المصطلح ويعطي له مفهوما بحسب ما استوعبه من الثقافة المشرقية، وهذا ما يدل على الاجتهاد ومحاولة تطوير البلاغة في المغرب العربي، وكان مما يكتب له من الحسنات أنه كان عندما يريد أن يتناول مصطلحا بلاغيا، فإنه يذكر الأسماء التي أطلقت على ذلك اللون.

وأحيانا يذكر أسماء العلماء الذين أطلقوا تلك الأسماء، ومثال ذلك: عن مصطلح **الاستثناء** يقول: "وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم"[1]، و**الايغال** يقول عنه:"والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ"[2]، ويقول عن**التسهيم** :"وقدامة يسميه التوشيح، وقيل: إن الذي سماه تسهيما علي بن هارون المنجم، وأما بن وكيع فيسميه المُطمِع"[3].

ونجده كذلك في بعض الأبواب يفضل بعض المصطلحات على غيرها، ومثال ذلك يفضل مصطلح **التتبيع** على مصطلح **التجاوز**[4]، ومصطلح **التصدير** على مصطلح **رد العجز على الصدر**[5].

وفي بعض الأحيان نجد ابن رشيق يبرر الأسباب التي تركت بعض العلماء يسمى مصطلح ما بتسمية خاصة على غرار الاخرى، ومثال ذلك: نجده معللا تسمية بعضهم مصطلح **التسهيم** بمصطلح: **المُطمع**، فيقول:"فأما تسمية المطمع فذلك لما فيه من سهولة الظاهر وقلة التكلف، فإذا حُول امتنع وبعُد مرامه"[6].

وكذلك نجده يبين ويصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض العلماء في المصطلحات أو في اطلاقها، ومثال ذلك مصطلح **الاستطراد** الذي صحح مفهومه ومصطلحه وعرفه بقوله:"وهو أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره"، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد، وإن تمادى فذلك خروج، وأكثر الناس يسمي الجميع استطرادا والصواب ما بينته"[7].

وميزة أخرى نجدها في كتاب العمدة، وهي أن معظم شواهد المصطلحات البلاغية التي أوردها ابن رشيق في ضرب امثلة المصطلح لتوضيحه هي من مصدر مشرقي، ونقلها بحد ذاتها للاستدلال بها في متن المصطلحات البلاغية.

❖ **المصطلحات المغربية:** وهنا نجد أن ابن رشيق المسيلي قد أبدع مصطلحات من انشائه في متن كتاب العمدة، وأخرى أخذها من علماء المغرب العربي كأستاذه عبد الكريم النهشلي أو من علماء عصره في بيئته.

➢ **المصطلحات التي أبدعها:** من بين المصطلحات التي تميز بها وأطلق عليها أسماء خاصة وهي من صميم ابداعه، ما نجده مع مصطلح: الاطراد والتورية والتغاير والتفريع و الاشتراك...

أ. **فالاطراد:** هو في اللغة التتابع، أما ابن رشيق عرفه بقوله:"أن تطرد الأسماء من غير كُلفة ولا حشو فارغ"[8]. مثال ذلك ما وضحه الخطيب القزويني من قول النبي ص في الاشادة بيوسف عليه السلام ونسبه، قال:"الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم"[9].

ب. **التورية:** معلوم أن التورية عند علماء البلاغة هي:"أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ويراد به البعيد"[10]، والتورية التي أبدعها ابن رشيق في توضيح أشعار العرب كان يقصد بها:"كناية بشجرة أو شاة أو بيضة أو مُهرة أو ما شاكل ذلك"[11]. وضرب لذلك بالعديد من الأمثلة الشعرية التي يكنى فيها عن امرأة بما صوره في تعريفه.

ت. **التغاير:** يعرفه بأنه"هو أن يتضاد المذهبان في المعنى حتى يتقاوما، ثم يصحّا جميعا"[12]، ويذكر أن "ذلك من افتنان الشعراء وتصرفهم وغوص أفكارهم"[13]، وضرب لذلك بمثال مفضلا القلم على السيف.

ث. **التفريع:** يعرفه "أن يقصد الشاعر وصفا ما، ثم يفرغ منه وصفا آخر يزيد الموصوف توكيدا"[14]، وقال موضحا:"وصف شيئا ثم فرغ شيئا آخر لتشبيه شفاء هذا بشفاء هذا"[15]، ومن الأمثلة على التفريع التي اعجب بها ، ما وضحه في قول المتنبي:

أُقَلبُ فيه أجفاني كأني أعُدُّ به على الدهر الذنوبا

فقد وصفه بأنه **لطيف التفريع** وقال موضحا:"بينا هو يصف كثرة سهره وإدارة لحظه شبهها بكثرة ذنوب الدهر عنده"[16].

وإذا كان التفريع هو نوعا من الاستطراد كما ذكره واكتشفه وسماه ابن رشيق، فإن من الباحثين من يرى أن التفريع هو الاستطراد نفسه الذي اكتشفه أبو هلال العسكري، ويذهب إلى أن تعريف ابن رشيق لهذا النوع من الاستطراد هو تعريف العسكري للاستطراد[17].

ج. **الاستدعاء:** يعرفه بقوله:"هو ألا يكون للقافية فائدة إلا كونها قافية فقط، فتخلو حينئذ من المعنى"[18] ومن هنا إذا كان يرى بعض الباحثين أن هذا المصطلح البلاغي من بين المحسنات البلاغية من أمثال عبد العزيز عتيق[19]، فإنه غيره لا يرى ذلك، لأنه "لا يأتي لتحسين اللفظ أو تحسين المعنى، وإنما يأتي فقط لمجرد القافية التي يستدعيها البيت"[20].

- **<u>المصطلحات التي أخذها عن أبناء بيئته المغربية:</u>** ومن بين المصطلحات التي وضعها ابن رشيق المسيلي مستندا على علماء المغرب العربي، ما نجده مع مصطلح **المضادة** الذي أخذه عن أستاذه عبد الكريم النهشلي في حديثه عن مصطلح التصدير بقوله:"ومن التصدير نوع سماه عبد الكريم المضادة وأنشد قول الفرزدق:

أصدر همومك لا يغلبك واردها فكل واردة يوما لها صدر"[21].

وكذلك أخذ برأيه في مصطلح: **التقسيم**[22]، **والمبالغة**[23]، **والتكرار**[24]، **وحسن التخلص**[25]، **والنسيب**[26].

<u>الاستعارة البديعية</u> : للاستعارة عن البلاغيين تعريفات و تخريجات كثيرة غير أن الاجماع عن جمهور علماء الأدب ، و ارباب هذه الصناعة على ان الاستعارة ابلغ من

الحقيقة ، ولعل التعريف الذي يقول " الاستعارة تصييرك الشيء للشيء و ليس به ، و جعلك الشيء للشيء و ليس به بحيث لا يلحظ معنى التشبيه صورة و لا حكما " .

ذلك ان الاستعارة تحسن المعنى و تبرزه ، و تجدد البيان و تكسب اللفظة الواحدة ملاحة وفائدة، و قد يكون في هذا مالا يتوافق مع الحقيقة ، اضف الى ذلك ان الاستعارة تشرح المعنى و تؤكده، و تنزل عليه مسحة من الخيال الجميل ، و " الاستعارة اوكد في النفس من الحقيقة ، و تفعل في النفوس ما لا تفعله الحقيقة " ، و في مثل ذلك يقول ابو تمام :

بصُرْتَ بالرَّاحة ِ الكُبرى فلمْ ترها تُنالُ إلاَّ على جسرٍ منَ التَّعبِ .

و الملاحظ أن ابن رشيق ربط بين الاستعارة و البديع ، و معنى ذلك انه جمع بين المعنى واللفظ ، أو بين المجاز و الحقيقة ، " و كان الخيال أصبح حقيقة معروفة " ، ذلك انها "كانت تساوق المجاز و تجري مجراه حتى يصلح لكل ما يصلح له ، فذكرها في البديع يقتضي أن كل موصوف بانه مجاز ، فهو بديع عندهم " ، و هي " أفضل المجاز و أول ابواب البديع "، وهذا رأي الآمدي ايضا الذي اعتبر الاستعارة من البديع .

و لما كان ابن رشيق من النقاد المتبحرين في الأدب ، لغة، و بلاغة و شعرا ،و على طريقة النقاد القدامى – مستطردا – واصل بسخاء ذكر الامثلة و الشواهد الدالة على الاستعارة البديعية ، فبين ان " الدلالة المطابقة انطباق اللفظ على المعنى بلا زيادة في احدهما أو نقصان " ، ثم فصل مواطن الأخذ، فذكر مواطن الاخذ المحمود ، فيحمد لشاعر كبشار اجادته و ان كان الحذو واحدا ، و هو من المولدين في قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

و اتسعت القائمة في هذا الباب ، لبتشمل شعراء آخرين من قدماء و محدثين ، فخضعوا علهم لميزان ابن رشيق النقدي ، بما اوتي من ثقافة واسعة ، و احاطة بمدارس النقد و اتجاهاته ، و كان في كل ذلك يحرص " على استنباط الاحكام من النصوص الأدبية و مقارنتها ، فلا عزلة بين النظري و التطبيق ، و يكشف النضج الفني في العمل الأدبي ويقومه ، فلا قيمة للحكم اذا لم يكن معللا "، و قد يكون هذا من أهم ما ميز اجتهادات ابن رشيق النقدية ، ذلك ان الدارس لهذه الاراء و الاحكام النقدية ، يدرك انها

صادرة من علم، وبحث وممارسة ، و تحكم في ادوات النقد ، و رغم اعتراف ابن رشيق ان السرقة انما تقع في البديع النادر ، فانه وقع في بعض الاضطراب بحيث اختلط عليه الفصل بين اللفظ و المعنى و الفكرة ، و يبدو ان صاحب القراضة يطلق لفظ المعنى على الفكرة احيانا ، فلما كان بصدد تحليل بيت عبد الكريم النهشلي القائل :

يجيش فيه كانما رعشت اليك منه انامل عشر.

ذكر مخاطبا ابا الحسن علي بن القاسم اللواتي ، انما من ادعى ذلك ضربا من السرق كان في المعنى، ثم يعلل عدم وجود السرقة مركزا على اللفظ ، لا على المعنى ، بقوله "و ليس لفظة الارتعاش من خاص البديع فيعد ذكرها سرقة " ، و من باب المقابلة يبين ان تشابه الألفاظ لا يعتبر سرقة مادام القصد مختلفا ، " و قد جاء من هذا النوع كثير من اللفظ و غير اللفظ " و هو الراي الذي استقر عليه الآمدي الذي يقول : " و ليس فيه إلا اتفاق ألفاظ ليس مثلها مما يحتاج واحد ان يأخذه من آخر" ، و نسي ابن رشيق الإشارة إلى أن "الغلبة تكون للوظيفة الشعرية مع ضرورة مراعاة الحضور الدائم لجميع الوظائف الأخرى " .

و مهما يكن فانه " ليس من السهل أن يقال أن الشراكة في الموضوع تدل على تقليد أو محاكاة ، لأن مواد الحياة في تطور حضاري ما قد تكون متشابها ، وهي التي تصنع الموضوع الشعري " .

<u>التشبيه : للتشبيه</u> بلاغة تأثر في النفس ، و هو من الوسائل التي استعان بها الأدباء في تصوير الأشياء ، وإبرازها في أحسن حلة و أبهاها ، و لا تكاد تخلو منه فقرة من الفقرات في المنظوم و المنثور ، و سر ذلك أن للخيال نصيبا كبيرا فيه ، و يعمل عمل السحر في إيضاح المعاني و جلائها ، و من أسرار الخيال في التشبيه : إيهام النفس والبحث عن الأسباب و العلل و الصور التي تريحها و تؤنسها ، "وأجود التشبيه ما يقع على أربعة أوجه :

- إخراج ما لا تقع عليه الحاسة ، و إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به ، وإخراج مالا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، و إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها " .

أورد ابن رشيق في هذا الباب – التشبيه – بيتا لامرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا و يابسا لدى وكرها العناب و الحشف البالي

ثم ذكر مجموعة من الأبيات لشعراء من القدامى و المحدثين ، و بعد المقارنة و الموازنة يصل إلى أن الصورة قد تتكرر و تتشابه في المعاني ، لتداولها بين الألسن منذ امرئ القيس ، لكن هؤلاء مع اعتراف ابن رشيق لهم بالسبق و الإجادة في المعاني المطروحة ، لم يصنعوا شيئا مع صنع امرئ القيس، و يمضي امرؤ القيس على هذا النهج ، فهو " تارة يشرح المصطلح ويمثل له ، و يعلل التسميات و مرة يقتصر على ذكر المصطلح و يمثل له ببيت من الشعر أو بيتين"

التجنيس و المطابقة :

يفرق ابن رشيق المسيلي بين التجنيس و المطابقة و يفرد لذلك بابا سماه (ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة)، غير أنه ربط بينهما حينما زعم أنهم خطيئة فاضحة لأنهما من البديع، و البديع في لغة العرب هو الجديد المخترع ، لا على مثال سابق ، و لا على احتذاء، ومع أن هذا الرأي لا يخلو من صواب ، يحمل في ذات الوقت بعض المبالغة ، من ذلك استشهاده ببيت لامرئ القيس في المطابقة الواردة في شطره الأول :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فاذا كان ابن رشيد يريد اللفظ و المعنى فذلك حسبه ، و ذلك سرق ، " بل مكابرا مصالتا" ، سواء كان ذلك مطابقة أو تجنيسا ، غير أن "العمل " الأدبي ذو طبيعة خاصة . . . فقد تكون هناك صلة بين العمل الأدبي وظروفه الخارجية ، و لكن يظل مع ذلك مستقلا بذاته عن تلك الظروف ، و ذلك لكونه ليس مجرد اعادة تعبير عن قيم و حقائق ، يمكن استنتاجها منه مثلما نستنتج من حقول ونشاطات علمية أخرى " .

لقد تناول ابن رشيق هاذين المصطلحين في(كتاب العمدة)، و مع أنه تناولهما باسهاب لم يربطهما بالسرقة ، واكتفى بالاشارة إلى التجنيس الجيد المستحسن اذا لم يكن

على غير قصد ، و أتم المعنى واظهر حسنه " فصار بعض المعنى مرتبطا ببعضه و مظهرا لخفي محاسنه ، وحصل التجنيس فضلة على المعنى ، " وما ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة فيه ، واكتفى أيضا بشرح موسع للمطابقة مع ذكر أمثلة من المنظوم و المنثور .

ولا يفسر هذا الاتباع بالتقليد رائما ، و كان وراء هذا عامل التباع بالشعراء المعروفين بالقدرة على الابداع ، وقد يكون الميل النفسي او الظرفي من عوامل الاتباع ، فيكون المتبع حينئذ مقتفيا اثر غيره لتصوير رغبة من رغبات النفس و ميولها ، او للتعبير عن تجارب و مواقف عايشها الشاعر .

و المتمعن في الشواهد التي استدل بها ابن رشيق على وجهة نظره في المطابقة و التجنيس و المبالغة لا تتصل كلها باللفظ فبعضها يتصل بالمعنى ، او ما عبر عنه ابن رشيق بالاختراع او الابداع ، و اذا كان من فضل يحسب لابن رشيق فهو تنبيهه الى ان الادب الأصيل هو الذي يتميز بالخصوصية و التفرد ، ان في اللفظ و ان في المعنى ، و ان فيهما معا ، و هو الاجود ذلك ان الالفاظ و المعاني جائت في قالب بديع ، فيحرس المتأخر على اتباع صاحب التفرد او مشاركته ، او السطو في بعض الأحيان .

و في باب المطابقة و المجانسة ذكر ابن رشيق مصطلحات أخرى متصلة بهما كالتتميم الذي عرفه بقوله " ان يحاول الشاعر معن فلا شيء يتم به حسنه الا أورده " ، اما أبو هلال العسكري فقد ذكر ان التتميم هو " ان توفي المعنى حظه من الجودة و تعطيه نصيبه من الصحة ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه الا تورده " .

لا شك ان الصدق فقي النهاية هو الفيصل بين حقيقة التجربة و قشرتها ، فالمعاناة الحقيقية المبدعة في الشعر هي المدخل في الفن الحقيقي ، ذلك أن الشاعر لا يعاني بالضرورة معاناة مباشرة ، ولكنه قد يعانيها بالمعايشة العاطفية ، فيستدعي فكره و ذاكرته و خياله و عاطفته ليعيش تجربة غيره ، "لان النص بنية دلالية تنتجها ذات فردية او جماعية ضم بنية نصية منتجة ، في اطار بنيات ثقافية و اجتماعية محددة " غير ان الصدق الفني لا يراد به الصدق التاريخي الذي يقوم على المطابقة بين الواقع الشعري و

الواقع التاريخي ، و لكنه الصدق الفني الذي يمنح للشاعر جواز مروره الدائم الى ذاته ، وليس الى المحفوظ من الموروث .

لقد ساق ابن رشيق كما من الاستشهادات المتعددة و المتنوعة ، كتمثيل من مظاهر الاصالة والابداع ، و الاخذ و التاثر و الاتباع كنماذج للتدليل على صواب رأيه و قوة حجته ، و سلامة ذوقه ، وكان يتذكر قول ابن طباطبة : " وكل ما اودعناه هذا الكتاب فامثلة يقاس عليها أشكالها ، و فيها مقنع لمن دق نظره و لطف فهمه ، فاستشهدنا بالجزء على الكل و اثرنا الاختصار على التطويل " .

ان المجهود الذي يذله ابن رشيق تميز بكثير من الدقة و الوضوح و التدرج في الاحكام النقدية ، والتروي في إصدارها بعد عرض النصوص و الآراء و موازنتها في المعاني و المباني ، و لعل تفسير ذلك ان منطقة المغرب العربي لم تكن بها تلك الصراعات الحادة التي تجدها بلدان المشرق .

لكن من الإنصاف أن نقول إنه لا يحكم على مؤلف وعلى آرائه من خلال مؤلف واحد، فابن رشيق له مؤلفات غير العمدة لها صلة وثيقة بالنقد وهؤلاء حسب ما أورده عماد ومحمد محمود البخيتاوي لم يعتمدوا سوى العمدة. والمطّلع على قراضة الذّهب، وعلى أنموذج الزمان في شعراء القيروان سوف لن يعدم الأصالة النّقدية التي اتسم بها ابن رشيق في كثير من الاراء التي أدلى بها في حق جملة من أشعار بلدته القيروان.

وإنّ مجمل القول في المسوقات النظرية في شأن موضوع جانب التطبيق في تفكير ابن رشيق المسيلي ، أن كل عبارة أو معنى أو إيقاع موكول في نظر ابن رشيق إلى الفطنة الحسية هي التي تسوّي وتُعدّل وفق مقولة الاستواء والتعديل التي قال بها الجاحظ[27]،حتى تخرج بالقول الشعريّ من الفوضى والاختلاف والتفاوت، إلى النظام والاستواء والانسجام ، وذلك الذي يستهوي النفوس المهيأة للتفاعل مع شعرية الشعر الشاعر .

فقد تشجع ابن رشيق إلى تبنّي الرؤية الانتقادية لكثير من الرؤى النقدية البلاغية العربية القديمة رائيا إليها مقصرة في الإلمام بمكونات كثير من المواقف التعبيرية وقد جاء

ذلك التقصير بسبب من التهيّب والتحفظ اللذين وسما المزاولة النقدية الأدبية والاتباع الذي طبع آراء كثير من النقاد العرب المحافظين على أن ذلك في نظره إخلال بمقدرات القراءة النقدية المتجاوبة مع التحولات الثقافية والاجتماعية التي ما فتئ المجتمع العربي يحققها حضاريا ، ثمّ إن طبيعة الفطرة والغريزة موحية بضرورة تحرير القراءتين الفلسفية والجمالية من شراك الريب والتهيب ، وأما من جهة التقييم الجمالي للشعرية أو الأدبية العربيتين فقد تشجع ابن رشيق متطوعا إلى إمساس كثير من القضايا التي استمدها أو استنبطها من حقيقة الانفعال الإنساني أو الإحساس الفطري الذي تتساهم فيه جميع البشر ، وتبعا لهذه الرؤية النقدية ارتأينا تمحيص الإجراء النقدي التطبيقي في تفكير ابن رشيق المسيلي البلاغي.

الهوامش:

[1] ابن رشيق: العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت لبنان، ط4، 1972م، ج2، ص48.

[2] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص57.

[3] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص31

[4] ابن رشيق: العمدة، ج1، ص313

[5] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص3

[6] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص34.

[7] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص39

[8] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص82.

[9] الخطيب القزويني: الايضاح، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، ط2، دت، ص214_215.

[10] الخطيب القزويني: الايضاح، ص199

[11] ابن رشيق: العمدة، ج1، ص311.

[12] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص100

[13] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص100

[14] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص42.

[15] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص42.

[16] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص43.

[17] ينظر: أبي هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1981م، ص448.

[18] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص73.

[19] ينظر: عبد العزيز عتيق: في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، دط،دت، ص234.

[20] عبد القادر حسين: المختصر في تاريخ البلاغة، دار الشروق، بيروت لبنان، ط1، 1982، ص143.

[21] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص124.

[22] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص26

[23] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص57

[24] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص74

[25] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص74

[26] ابن رشيق: العمدة، ج2، ص118.

[27] البيان والتبيين ، الجزء الأول تحقيق: محمد عبد السلام هارون مؤسسة الخانجي بالقاهرة ، ص: 64.